فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية

إيمانويل كانط

ترجمة: محمد منادي إدريسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية*

إيمانويل كانط

ترجمة: محمد منادي إدريسي

نشرت هذه المقالة في Berlinische Monatsschrift في نونبر 1784 استجابة لانتظار أثارته ملحوظة وردت في Gotaische Gelehrte Zeitung في فبراير من السنة نفسه، وقد جاء فيها: "ثمة فكرة عزيزة على قلب الأستاذ كانط، ومفادها أن غاية الجنس البشري هي بلوغ النظام السياسي الأكمل، وهو يأمل في أن يشرع مؤرخ فيلسوف في تأليف تاريخ للبشرية على ضوء هذه الفكرة، فيُظهر فيه مدى اقتراب الإنسانية أو ابتعادها عن هذه الغاية في مختلف العصور، ويبين فيه ما تبقى لنا أن نفعله لكي نصل إلى تلك الغاية."

* المواطنة العالمية تعريب لكلمة (cosmopolitisme) وهي تعبير يتكون من كلمتين يونانيتين: kosmos، وتعني العالم، وpolites، وتعني المواطن، فالتعبير يعني حرفيًا المواطنة العالمية القائمة على اعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها هم أفراد البشر جميعًا بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية والعرقية والجنسية. والكسموبولوتية حسب كانط فكرة تنظيمية يجب السعي دائمًا إلى تحقيقها دون تراخٍ. إنها وجهة نظر فلسفية تتعلق بتقدم الحرية على الأرض بكاملها، إنها بمثابة خيط مرشد يجعلنا ننظر إلى التاريخ الكوني على أنه يتوجه نحو تحقيق نظام عادل على المستوى الداخلي وجمعية تتحد فيها أمم الأرض وشعوبها على المستوى الخارجي، أي نحو إقامة علاقات على المستويين الوطني والدُّولي تحكمهما قوانين كونية عادلة، وفي هذه الوضعية الكسموبولوتية ستتفتح كافة الاستعدادات الأصلية في الطبيعة البشرية.

فكرة عن تاريخ كوني من وجهة نظر المواطنة العالمية[1]

أيًّا يكن المفهوم الذي يمكن تكوينه، من زاوية نظر ميتافيزيقية، عن **حرية الإرادة**، فإن **تجلياتها الظاهراتية**، أي الأفعال الإنسانية، تظل محدَّدة بقوانين كونية للطبيعة، مثل أي حدث طبيعي آخر[2]. إن التاريخ الذي يَعْتزم سَرْد هذه التجليات الظاهراتية، أيًّا يكن عمق خفاء أسبابها، لَيَتْرك مع ذلك الأمل في أنه، بإلقائه نظرة **إجمالية** على لعبة حرية الإرادة الإنسانية، يمكن أن يكتشف فيها مجرى منتظمًا، وعلى هذا النحو فإن ما بدا عند الذوات الفردية معقدًا وغير منتظم يمكن أن يتم التعرف عليه، في مستوى النوع بأكمله، على أنه تطور مطرد، وإن كان بطيئًا، لاستعداداته الطبيعية. وهكذا تبدو الزيجات والولادات التي تنجم عنها والموت، نظرًا لأن إرادة البشر الحرة تمارس فيها قدرًا كبيرًا من التأثير، أمورًا غير خاضعةٍ لأي قاعدة نستطيع بمقتضاها أن نحسب عددها مسبقًا. غير أنّ القوائم التي توضع لها في كل سنة في الدول الكبرى تقيم الدليل على أنها تحدث وفقًا لقوانين طبيعية مطردة شأنها شأن التحولات الجوية التي يبلغ من عدم اطرادها أنها لا تكون قابلة للتوقع، إن أُخِذت منفردة، بيد أنها في مجموعها لا تتوانى عن المحافظة على المسار المنتظم والمستمر لنمو النباتات وجريان الأنهار وتشكيلات طبيعية أخرى. إن البشر، باعتبارهم أفرادًا منعزلين، بل شعوبًا بأكملها، لا يخطر على بالهم أبدًا أنهم إذ يقْتَفُون أغراضهم الخاصة، كلٌّ بحسب مشيئته، فيعارض بعضهم بعضًا في الغالب، إنما يتجهون دون دراية منهم نحو مقصد الطبيعة، الذي يجهلونه، ويعملون، كما لو أنهم يقتفون هاهنا خيطًا مرشدًا، على تيسير تحققه، حتى لو أحاطوا بذلك علمًا لما اهتموا به إلا قليلاً.

بما أن الناس في جهودهم التي يبذلونها ابتغاء تحقيق مطامحهم لا يسلكون في المجمل سلوكًا غريزيًا صرفًا، مثل الحيوانات، ولا هُم مع ذلك يتَّبعون مثل مواطني العالم العقلاء خطة محبوكة، فإنه يبدو أن تاريخًا تحكمه خطة، مثل تاريخ النحل والقنادس، مستحيل فيما يخصهم. لا يمكن للمرء أن يتمالك نفسه عن إبداء بعض الاستياء عندما يرى حركاتهم وسكناتهم معروضة على خشبة العالم الكبرى، فلا يجد، إلى جانب بعض تجليات الحكمة هنا أو هناك فيما يخص حالات فردية، إلا نسيجًا من الجنون والتبجح الصبياني، بل في الغالب نسيجًا من الخبث والتعطش إلى التخريب الطفوليين، بحيث لا يعلم أي مفهوم ينبغي أن يكوِّنه عن نوعنا المتشبع إلى حد كبير بتفوقه. ولا يمكن للفيلسوف أن يستمد من ذلك غير الدرس

[1]. تعود ملحوظة مختصرة ظهرت في الدفعة الثانية من مجلة Gotaische Gelehrte Zeitung في هذه السنة (11 فبراير 1784) إلى حوار جرى بيني وبين أحد العلماء الذي كان مارًا، وهي التي دفعتني إلى تقديم هذا التوضيح الذي من دونه ستظل تلك الملاحظة غير مفهومة.

[2]. خضوع الأفعال الإنسانية بما هي ظاهرات للضرورة لا يلغي حرية الإنسان بما هو كائن عاقل. إن أفعاله من حيث هو أحد كائنات الطبيعة مشروطة وتحتل موقعها في تسلسل الظاهرات السببي، ولكن من حيث هو "نومين" ينتمي إلى عالم المتعالي ما فوق المحسوس فإنه علة حرة لا مشروطة.

الآتي: بما أنه يستحيل افتراض أيَّ مقصد خاص معقولٍ في المجمل عند الناس وفي أعمالهم، فإنه ملزم بأن يبحث عما إذا كان بمكنته أن يكتشف في مجرى الأمور البشرية العبثي مقصدًا للطبيعة، يكون تاريخًا يجري انطلاقًا منه وفقًا لخطة معينة للطبيعة أمرًا ممكنًا فيما يتعلق بمخلوقات تتصرف دون خطة خاصة.

إن مسعانا هو أن نستبين ما إذا كان من الممكن أن نجد خيطًا مرشدًا لتاريخ كهذا، وسنترك للطبيعة فيما بعد مهمة إيجاد الرجل القادر على كتابة التاريخ طبقًا لهذا الخيط المرشد، ألم تُوجِد كبلر الذي أخضع، على نحوٍ مدهش، مدارات الكواكب الخارجة عن المركز لقوانين محددة، ونيوتن الذي فسر هذه القوانين من خلال علة طبيعية كونية؟

القضية الأولى:

إن جميع الاستعدادات الطبيعية لمخلوق ما مُهيّأة لأن تتفتح في وقت ما تفتحًا تامًا طبقًا لغاية ما، وهذا الأمر تم التحقق منه عند جميع الحيوانات، إن بالملاحظة الخارجية أو بالملاحظة الداخلية أو التشريح. إن عضوًا لا وظيفة له أو ترتيبًا لم يصل إلى هدفه، أمران متناقضان في نظر مذهب الطبيعة الغائي، فلو حِدْنَا عن هذا المبدأ لَكُنّا أمام طبيعة تعمل دون أي هدف، لا أمام طبيعة تجري حسب قوانين، فتأتي الصدفة المزعجة لتقوم مقام الخيط المرشد للعقل.[3]

القضية الثانية:

لن تتفتح الاستعدادات الطبيعية الرامية إلى استعمال العقل عند الإنسان، من حيث هو المخلوق العاقل الوحيد على الأرض، تفتحًا كاملاً إلا في النوع وليس في الفرد. والعقل[4] عند مخلوقٍ عبارة عن قدرة تسمح بتوسيع القواعد والمقاصد التي توجه استعمال كافة قواه توسيعًا يتخطى الغريزة الطبيعية كثيرًا، ومساعيه لا تعرف حدودًا. إنه لا يتصرف هو نفسه بطريقة غريزية، بل يحتاج إلى كثير من المحاولات والدُّرْبَة والتعلم كي يرتقي تدريجيًا من درجة من تعقل وفهم إلى أخرى. وتبعًا لذلك لابد أن تكون لكل إنسان حياة لانهاية لها لكي يتعلم كيف يجب أن يستعمل كافة استعداداته الطبيعية استعمالاً كاملاً. أما إذا لم تكن الطبيعة قد قَيَّضَتْ له إلا حياة مدتها قصيرة، كما هو الأمر فعليًا، فلأنها في حاجة إلى سلسلة لربما لا

[3]. الخيط المرشد للتاريخ الإمبريقي، أي فكرةُ صيرورةٍ معقولة للنوع البشري، خيط يقترحه الفيلسوف على المؤرخ لكتابة التاريخ. تشير عبارة "الخيط المرشد للعقل" إلى مبدأ الغائية، وهو مبدأ تفكري، أي أنه لا ينتج معارف موضوعية، بل هو فكرة للعقل بها يضفي نظامًا على معارف مشتتة. إن وجهة النظر التي تبناها كانط في هذه المقالة عبارة عن نظرة "متفكرة" (réfléchissant) في التاريخ، ومعنى ذلك أن العقل لا يستعمل هنا استعمالاً قطعيًا بل استعمالاً "تنظيميًا" صرفًا. وعليه، فإن فلسفة التاريخ عند كانط تتعلق بمجال المعنى وليس بمجال الحقيقة الموضوعية. هذا ما يميز فكرة "مقصد الطبيعة" عند كانط تمييزًا جذريًا عن فكرة "مكر العقل" الهيغلية.

[4]. العقل قدرة لا متناهية على وضع غايات جديدة وعلى ابتكار وسائل جديدة، ولا يحق لأحد أن يعين غايات معينة أو يضع حدودًا يقيد بها حرية الأجيال القادمة.

تُحصى من الأجيال، كلٌّ منها ينقل إلى اللاحقة أنواره ومعارفه، لكي تقود نُمُو جراثيمها في نوعنا البشري حتى المستوى الذي يوافق مقصدها. وهذه اللحظة الأخيرة يجب أن تكون، في فكرة الإنسان عنها على الأقل، هدفًا لجهوده[5]. إذ لولا ذلك للزم اعتبار جُلِّ الاستعدادات الطبيعية دون جدوى ولا غاية، ومن شأن ذلك أن يُلغي جميع المبادئ العملية، وعندئذ ستكون الطبيعة مُتّهمة بعمل صبياني فيما يخص الإنسان وحده، وهي التي حِكْمَتُها يجب أن تُتَّخَذ مبدأ للحكم على كل إنتاجاتها الأخرى.

القضية الثالثة:

أرادت الطبيعة أن يستمد الإنسان من نفسه بالكامل كلَّ ما يتخطى التنظيم الآلي لوجوده الحيواني، بل ألّا يكون له نصيب من أي هناء أو كمال غير الهناء والكمال اللذين خلقهما هو نفسه بعقله الخاص في استقلال عن الغريزة. فالطبيعة لا تفعل شيئًا عبثًا، وهي ليست مُبَذِّرة فيما يخص استخدام الوسائل الموصلة إلى غاياتها. إنها إذْ أعطت الإنسان العقلَ وكذلك حرية الإرادة التي ترتكز على هذا العقل قد أشارت بوضوح إلى مقصدها فيما يتعلق بما جُهِّز به الإنسان: لا يجب أن تقوده الغريزة ولا أن تُهذبه وتوجِّهَ خُطاهُ معرفة فطرية، بل ينبغي أن يستمد كل شيء من ذاته.

إن اكتشافه لطرقِ عيشه وملبسه وأمنه وحمايته الخارجيين، من أجل هذه الأمور لم تَهَبْهُ الطبيعة لا قرون الثور ولا مخالب الأسد ولا أنياب الكلب، بل يدين فقط، ولكل تسلية من شأنها أن تجعل الحياة ممتعةً، بل إن ذكاءه وفطنته وحُسْنَ طويته يجب أن يكون صنيعه الخاص. ويبدو أن الطبيعة قد آثرت مراعاة مبدأ اقتصادها بأكبر قدر، فقَدَّرَتْ عطاءها الحيواني تقديرًا وجيزًا ودقيقًا تبعًا للحاجات الأكثر إلحاحًا لوجودٍ في بداياته، لَكَأنّما رغبت في أن لا يعزو الإنسان الفضل لأحد سواه، وألّا يكون مَدينًا إلا إلى ذاته، عندما سيتمكن يوما ما، من خلال عمله، من الانتقال من حالة الفظاظة إلى حالة المهارة العظيمة وإلى الاكتمال الباطني لطريقة تفكيره، ومن هنا إلى السعادة، بقدر ما يكون ذلك ممكنًا على الأرض. فكل شيء يجري كما لو أنها حرصت على تقديره العقلي لذاته أكثر من رَغَد عيشه. فمسار الشؤون البشرية محفوفٌ بالكثير من المحن التي تنتظر الإنسان، ويبدو أن الطبيعة مع ذلك لم تحرص أبدًا على أن يعيش هنيئًا مريئًا، بل حرصت خلاف ذلك على أن يعمل على الارتقاء بسلوكه إلى الدرجة التي يصير فيها جديرًا بالحياة والهناء.

[5]. هذه نقلة هامة، إذ نمر من وجهة نظر طبيعية، حيث السيرورة التاريخية تتحقق بطريقة آلية، أي أن الطبيعة هي الفاعلة في التاريخ دون وعي الأفراد، إلى وجهة نظر إرادية وأخلاقية يعمل فيها الأفراد على تحقيق النظام السياسي العادل بوعي منهم، وتحقيق هذا النظام أمر يوجبه العقل الخالص العملي.

لكن يظل هناك أمر غريب دائمًا، وهو أنه: يبدو أن الأجيال السابقة لا تُتابع كدَّها الشاق إلا من أجل مصلحة الأجيال اللاحقة، وذلك كي تُهيئ لها بالضبط طورًا، انطلاقًا منه يمكن لهؤلاء رفع البنيان الذي تقصده الطبيعة إلى درجة أعلى. وستحظى الأجيال الأخيرة وحدها بالإقامة في البناء الذي عملت على تشييده سلسلة طويلة من الأسلاف، دون أن يسعوا إلى ذلك قصدًا في الحقيقة، الذين لن يتمكنوا هم أنفسهم مع ذلك من أخذ نصيب من السعادة التي أَعَدُّوها، ولكن أيًا يكن الغموض الذي يكتنف هذا الأمر فإنه مع ذلك ضروري إن سلَّمنا بما يلي: كان من اللازم أن يُعطى نوع حيواني العقلَ، ومن حيث إنه صنف من الكائنات العاقلة التي تفنى جميعها، ولكن نوعها خالد، وجَبَ مع ذلك أن يصل إلى التفتح التام لاستعداداته.

القضية الرابعة:

إن الوسيلة التي توظفها الطبيعة كي تقود إلى تفتُّح كافة استعداداتها هي تصارعها داخل المجتمع، طالما أن هذا التصارع يظهر أنه هو في نهاية المطاف السبب في النظام القانوني لذلك المجتمع، وأقصد بالتصارع قابلية الاجتماع اللااجتماعية[6] عند البشر، أي نزوعهم إلى الانخراط في مجتمع، إلا أنه نزوع مرتبط بمقاومة دؤوب لفعل ذلك، مما يهدد بشقّ هذا المجتمع وحلِّه. إن هذا الاستعداد ماثل بجلاء في الطبيعة البشرية، إذ يمتلك الإنسان ميلاً إلى الاجتماع، لأنه في وضع كهذا يشعر بأنه إنسان أكثر، أي يشعر بتفتح استعداداته الطبيعية، بيد أن لديه نزوعًا قويًا إلى التفرد والانعزال، إذ يجد في نفسه في الوقت ذاته هذا الطبع غير الاجتماعي الذي يجعله راغبًا في أن يوجه كل شيء بحسب مشيئته فقط، ولذلك يتوقع مقاومة من كل الجهات مثلما يعرف عن نفسه أنه ميال من جانبه إلى مقاومة الآخرين. لكن هذه المقاومة هي التي توقظ قوى الإنسان كلها وتحمله على أن يتغلب على ميله إلى الخمول، وعلى أن يحرز لنفسه، بدافع الطموح والجشع والتعطش إلى الهيمنة، منزلة بين أنداده الذين يتحملهم على مضض، ولكنه لا يستطيع مع ذلك أن يستغني عنهم. من هنا بالضبط تُنجز الخطوات الأولى التي تقود من حالة البداوة إلى الثقافة[7]، تلك الثقافة التي تكمن في القيمة الاجتماعية للإنسان، وعندئذ تتفتح شيئًا فشيئًا كافة المواهب، ويتشكل الذوق، ومن خلال التقدم المتواصل للتنوير يبدأ في التشكل نمط من التفكير يمكنه مع الزمن أن

[6]. استعمل كانط منذ بداية النص بعض الاستعارات الفيزيائية، ففكرة "قابلية الاجتماع اللااجتماعية" مستلهمة من قانون نيوتن المتعلق بالقوتين الأساسيتين: القوة الجاذبة والقوة النابذة.

[7]. تقع الثقافة على مسافة متساوية بين حالة الطبيعة والكل الخلقي، ولكنها لا تتخطى نطاق مقصد الطبيعة، أي إقامة نظام مدني تتعايش فيه الحريات في ظل القانون. فالكياسة وآداب التعامل الاجتماعية إنما تمثل خلقية خارجية، أي مجرد موافقة الأفعال للقوانين الخلقية، وهذا ما يسميه كانط بالشرعية (légalité). أما الخلقية (moralité) فتفترض الإرادة الخيرة، أي القيام بالفعل احترامًا للقانون، فيكون التوافق في هذه الحالة راجعًا إلى مبدأ باطني وهو القصد الخيّر. على أن الشرعية ليست غير ذات قيمة: إنما هي التي تضفي على الإنسان قيمة اجتماعية.

يُحوّل الاستعداد الطبيعي الفظ للتمييز الأخلاقي إلى مبادئ عملية محددة، وأن يجعل الوفاق المنتزع باثولوجيا[8] من أجل إقامة مجتمع، ينقلب إلى كلٍّ خلقي.

لولا الصفات غير الاجتماعية هذه، وهي في ذاتها غير محبوبة بالتأكيد، التي منها تنبع المقاومة التي لابد وأن تصُدَّ المزاعم الأنانية لكل فرد، لكانت جميع المواهب قد ظلت إلى الأبد كامنة في جراثيمها في ظل حياة مماثلة لحياة رعاة أركاديا، أي في ظلِّ حبٍّ متبادل وقناعة تامة ووفاق كامل، والبشر الوديعون مثل الخراف التي يسوقونها للرعي ما كانوا ليُضْفُوا على وجودهم قيمة أكبر مما لقطيعهم، وما كانوا ليملأوا فراغ الخليقة[9] فيما يتعلق بغايتها بما هي طبيعة عاقلة، فالشكر إذن للطبيعة على هذا الطبع المشاكس، على هذا الغرور الذي يفضي إلى التنافس المحموم، وعلى هذه الرغبة الشّرهة في التملك بل الهيمنة، لولاها لظلت كافة الاستعدادات الطبيعية الجيدة الموجودة في الإنسانية راقدة إلى الأبد في حالة كمون دون أن تتفتح.

يريد الإنسان الوفاق، ولكن الطبيعة تعلم أكثر منه ما هو الأفضلُ لنوعه؛ إنها تريد أن يكون مضطرًا إلى مبارحة خموله وقناعته السلبية لكي يُلْقِي بنفسه في معترك العمل الشاق ليجد فيه سبلاً للتخلص من مشقته من خلال استخدام الفطنة. إن الدوافع الطبيعية التي تحثه على ذلك، وينابيع اللااجتماعية والمقاومة العامة التي تنشأ عنها كثير من الشرور، وتشحذ قواه من جديد، فتحفزه على توسع أكبر للاستعدادات الطبيعية، إنما تنمُّ عن تدبير خالقٍ حكيم لا عن يدِ روحٍ خبيثة تعمل على تخريب عملها الرائع أو تفسده بدافع الحسد.

القضية الخامسة:

إن المشكل الأكبر بالنسبة للنوع البشري، والذي أرغمت الطبيعة الإنسان على حلِّه، هو التوصل إلى مجتمع مدني يُحَكِّمُ الحقَّ على نحوٍ كوني.[10] ففي المجتمع فقط، المجتمع الذي يتوفر على أكبر قدر من

---

[8]. أي المأخوذ غصْبًا من الإنسان دون علم منه، فالغصب هو الكيفية التي يُمارس بها مكر الطبيعة. أما كلمة "**باثولوجي**" فلا علاقة لها بأي مرض في هذا السياق، إنها تحيل على اللفظ اليوناني (pathos) الذي يعني انفعال وعاطفة. ويوظف كانط كلمة "باثولوجي" للدلالة على الدوافع والميول الحسية التي لا تصدر عن الإرادة، بل يتحملها الإنسان بكيفية سلبية، لابد أن نشير في هذا الصدد إلى أن النظام المدني – وهو القائم على أساس "وفاق منتزع باثولوجيا"، يسبق من حيث هو شرط ضروري، ولكن غير كافٍ، تجسد الخلقية في العالم، إذ من خلال سيرورة طبيعية، وليس بفعل الحرية الخلقية، يولد تاريخ الشرعية، وبمجرد أن تتحقق هذه يمكن لخلقية القصد أن تتجسد في العالم.

[9]. أي عالمٌ خالٍ من المعنى، إذ المعنى يقتضي الخلقية، أي فعل الكائنات العاقلة الحرة، وفراغ الخليقة يطابق الحقبة الأسطورية لرعاة أركاديا الذين ظلت عندهم جراثيم العقل غافية، ولم ينتشلهم التاريخ من سعادتهم الحيوانية وجهلهم، وأركاديا بلدة جبلية تقع في وسط سهل البيلوبونيز ولا تطل على البحر من أي من جهاتها، وقد ظل شعبها المحروم من هذه الوسيلة العظيمة للتجارة والتواصل، حسب الأسطورة، أكثر بلاهة وجهلاً ولا يعرف نمط عيش آخر غير الحياة الرعوية، وهي تمثل في مخيال الشعراء مكان البراءة والنعيم، أي العصر الذهبي.

[10]. صفة الكوني هنا يمكن أن تفهم بمعنيين:

الحرية مما يؤدي إلى صراع عام بين أعضائه، إلا أن فيه أدقُّ تعيينٍ وأدق تأمين لحدود هذه الحرية كي تتعايش مع حرية الآخرين، في مجتمع كهذا فقط يمكن أن تحقق الطبيعة مقصدها الأسمى، أي التفتح التام لسائر استعداداتها في البشرية. لكن الطبيعة تريد أن تكون البشرية ملزمة بأن تحقق بنفسها هذا المقصد، وكذا جميع غايات وجهتها، ولهذا فإن مجتمعًا ستكون فيه الحرية في ظل قوانين خارجية[11] مرتبطةً إلى أعلى حدٍّ ممكنٍ بقوة لا تقهر، أي نظامًا مدنيًا عادلاً بالكامل، يجب أن يكون المهمة العليا للطبيعة تجاه النوع البشري، وذلك لأن الطبيعة لا تستطيع التوصل إلى مقاصدها الأخرى فيما يتعلق بنوعنا إلا بحل هذه المهمة وإنجازها. إن البؤس هو الذي يرغم الإنسان الشغوف بحرية لا ضابط لها، على الانخراط في هذه الحالة من الإكراه، وهو أبشع ضروب البؤس: أي ذاك الذي يتسبب فيه البشر أنفسهم بعضهم لبعض، فتَحُول ميولهم دون أن يظلوا متجاورين مدة طويلة في حالة حرية وحشية. في هذا السياج فقط، الذي يشكّله الاجتماع المدني، تُحْدِثُ هذه الميول نفسها أحسن صنيع. وهكذا فإن الأشجار في غابة ما، ونظرًا لأن كل واحدة منها تسعى إلى انتزاع الهواء والشمس من الأخريات، تجد نفسها جميعًا مرغمة على البحث عنهما فوقها، ولذلك تنمو جميلة ومستقيمة، أما الأشجار البعيدة عن الأشجار الأخرى، التي تطلق العنان لأغصانها تتّجه أنّى شاءت، فتنمو ضامرة وملتوية ومعوجة.

إن كل ثقافة وكل فن تتزيَّن بهما الإنسانية وكذلك النظام الاجتماعي الأكثر جمالاً، ذلك كله إنما هو ثمار اللااجتماعية التي تجبر نفسها على الخضوع للنظام، وتبعًا لذلك على التفتح التام لجراثيم الطبيعة من خلال تلك الحيلة المفروضة.

القضية السادسة:

هذا المشكل هو الأصعب، والذي لن يحله النوع البشري بسهولة، والصعوبة التي تضعها مجرد فكرة هذه المهمة تتمثل في كون الإنسان حيوان بحاجة إلى سيّدٍ عندما يعيش بين أفراد آخرين من نوعه، لأنه بالتأكيد يسيء استخدام حريته فيما يتعلق بأشباهه، وحتى إن هو أراد، بوصفه مخلوقًا عاقلاً، قانونًا يفرض قيودًا على حرية الجميع، فإن ميله الحيواني والأناني يَحْمِلُه على أن يستثني نفسه عندما يشاء، إذ

أ- إن نظرنا إلى الحق نظرة أداتية صرف، أي على أنه متوقف على مكر الطبيعة، فإن كونية ممارسة الحق تدل على الشرعية بالضبط، أي خضوع الأفراد على قدم المساواة للقوانين الخارجية العامة.

ب- أما إذا نظرنا إليه من وجهة نظر غائية، فإن الأمر حينئذ يتعلق بمثال الحق، وعندئذ يجب أن نفهم صفة الكونية بمعنى المجتمع الكسموبوليتي، وهو الهدف القصى لاتحاد النوع البشري، وللأمر حينئذ صلة بفكرة (Idée): وهي مفهوم عقلي خالص ضروري لا يقابله أي معطى في التجربة، أي بمبدأ تنظيمي أو موجه للفعل، أو لنقل بأنموذج لا يجسده فعليًا أي مجتمع مدني.

[11]. قوانين خارجية لأنها تتعلق بمجال الشرعية وليس بمجال الخلقية، ولذلك لا تقتضي مثل الأمر القطعي طاعة داخلية نابعة من قصد حسنٍ لإرادة خيرة.

يحتاج إلى سيّد يكسر إرادته الخاصة ويُرغمه على أن ينصاع لإرادة صالحة كونيًا، بفضلها يستطيع كل واحد أن يكون حرًا.

لكن من أين له بهذا السيد؟ إنه لن يكون إلا من النوع البشري، لكن هذا السيد، مثله تمامًا، حيوان يحتاج إلى سيد. أيًا تكن الطريقة التي بها يفعل ذلك، فإنه لا سبيل إلى معرفة كيف يستطيع أن يحصل على قائد للعدالة العمومية يكون هو نفسه عادلاً، سواء بحث عنه في شخص واحد أم في جماعة من الأشخاص تم اختيارهم لهذا الغرض، لأن كل واحد منهم سيسيء استخدام حريته إذا لم يوجَدْ أَحَدٌ فوقه ليمارس تجاهه قوة شرعية. غير أن القائد الأعلى يجب أن يكون عادلاً بذاته[12] وأن يكون إنسانًا مع ذلك، وتُعَدُّ هذه هي الأصعب، وحلُّها التام مستحيل،[13] فالعود الذي قُدَّ الإنسان منه بلغ من الاعوجاج[14] مبلغًا لا يمكن معه أن نصنع منه شيئًا تام الاستقامة. ولا ترغمنا الطبيعة إلا على الاقتراب من هذه الفكرة[15]. أما أن هذه الفكرة هي أيضًا آخِرُ ما يوضع موضع تنفيذ فأمرٌ يعود إلى أن الوصول إليها يتطلب مفاهيم دقيقة عن طبيعة نظام ممكن، وتجربة واسعة صقلتها العديد من الأسفار حول العالم، بالإضافة إلى إرادةً خيرة مستعدة لقبول هذا النظام. على أن هذه العناصر الثلاثة لا يمكن أن توجد مجتمعة إلا بصعوبة بالغة، وإذا حدث ذلك فلن يكون إلا بشكل متأخر جدًا بعد محاولات عديدة لا جدوى منها.

---

[12]. لن يكون"الإنسان العادل بذاته" في حاجة إلى سيد كي يكون عادلاً، وعبارة "عادل بذاته" تدل على الاستعداد الباطني للإرادة، على الإرادة الخيرة في ذاتها، صاحبة القصد الخالص الذي لا تشوبه أي دوافع إمبريقية.

[13]. في مقالته "مشروع السلم الدائم" (1795) سيذهب كانط على خلاف ذلك إلى أن المشكل السياسي قابل للحل "حتى بالنسبة لقوم من الأبالسة". ويذهب الباحث فيلونينكو إلى أن فكر كانط قد تطور من 1784 إلى 1795، إذ كان مازال يخلط الأخلاق بالسياسة، بين مملكة الغايات والنظام الجمهوري، سنة 1784، فاعتبر المشكل ممتنعًا عن الحل، لأنه يتوقف أساسًا على إرادة خيّرة، كما تقول نهاية القضية السادسة. أما في 1795، حسب فيلونينكو دائمًا، فقد أصبح يميز بين السياسة والأخلاق، وعليه لم يعد حل المشكل السياسي متوقفًا على الإرادة الخيرة، بل على العقل الحاسب أو الذكاء (l'intelligence). هل هذا التأويل دقيق؟ الحق أن كانط سيعود في كتابه "نزاع الكليات" (1798) إلى التأكيد على المشكل الأساسي الممتنع على الحل. ويقدم **لوك فيري** تفسيرًا آخر لهذا التضارب:

أ- لما كانت نظرية مقصد الطبيعة افتراضية فقط، فإن وجهات نظر أخرى حول التاريخ تبقى ممكنة، وما وجهة نظر الخلقية إلا واحدة منها، لكنها لما كانت تستدعي الإرادة الخيرة، وكانت هذه فكرة لا يمكن أن نجد لها نظيرًا في التجربة الفعلية فإنها ستكون بالضبط متشائمة.

ب- إذا كان كانط يتبنى بالتفضيل وجهة نظرٍ نظرية، وجهة نظر مكر الطبيعة، وهي بالمقابل متفائلة، لأن التقدم فيها لا يعتمد على الإرادة الخيرة، في النصوص المكتوبة بعد 1793، فإنما ذلك فقط ليرد على نقاد الثورة الفرنسية الرجعيين، مدافعًا بوصفه فيلسوفًا تنويريًا عن وحدة النظرية والممارسة، ومؤكدًا على الطابع "غير الطوباوي" للمثال.(راجع تعليق لوك فيري الوارد في ترجمته، ص1437-1438).

[14]. فكرة الاعوجاج هذه ترتد إلى استعارة لوثرية متعلقة بالأنانية، وسيعبر عنها كانط في كتاب "الدين في حدود العقل فحسب" بمصطلح الشر الجذري.

[15]. دور الإنسان إذن بالغ الصعوبة ويتطلب كثيرًا من المهارة، أما ما عليه سكان الكواكب الأخرى وطبيعتهم فهذا نجهله، لكن إذا أحْسنّا أداء مهمة الطبيعة هذه، فسنتمكن بالتأكيد من التباهي بأن لنا الحق في منزلة يُعْتدُّ بها بين جيراننا في بنيان العالم. لربما عند هؤلاء يستطيع كل فرد أن يصل تماما إلى وجهته في مجرى حياته. أما عندنا فالأمر مختلف تماما: النوع وحده يمكن أن يأمل ذلك.

القضية السابعة:

إن مشكل إقامة نظامٍ مدني كاملٍ مرتبطٌ بمشكل إنشاء علاقة خارجية شرعية بين الدول، ولا يمكن حلُّه من دون هذا الأخير، فما فائدة العمل من أجل نظام مدني كامل تنظمه قوانين بين أفراد مخصوصين، أي من أجل تنظيم جماعة؟ إن اللااجتماعية نفسها، التي أجبرت البشر على السعي إلى هذا النظام، هي السبب في أن كل جماعة، من حيث هي دولة لها علاقة بالدول الأخرى،[16] تتمتع في العلاقات الخارجية بحرية لا يضبطها قيْدٌ، وتبعًا لذلك على الدولة أن تنتظر أن تتحمَّل من أخرى الشرور نفسها التي أصابت الأفراد المخصوصين فأجبرتهم على الانخراط في حالة مدنية ينظمها القانون. وعليه، فإن الطبيعة قد وظفت من جديد طبع البشر المشاكس، بل وظفت هذا الطبع نفسه في المجتمعات الكبرى والهيئات السياسية التي شكّلها هذا النوع من المخلوقات، بصفته وسيلة لكي تحقق في نطاق تصارعهم المحتوم حالةَ سكينةٍ وأمانٍ. وهكذا، بتوسل الحروب والإعداد المتطرف والمتواصل لخوضها، ومن خلال البؤس الذي ينجم عن ذلك داخل كل دولة حتى في أوقات السلم، تدفع الطبيعة الدول إلى القيام بمساعي تكون ناقصة بدايةً، وأخيرًا، وبعد كثير من الفواجع والدمار، بل بعد إنهاك داخلي تام لقواها، تدفع الطبيعة إلى القيام بما كان من شأن العقل أن يُمليه عليها من دون أن تتحمل كلفة مِحَنٍ بالغة المرارة، أعني أنها ترغمها على الخروج من حالةِ غيابِ القانونِ الخاصةِ بالمتوحشين للدخول في جمعية أمم، يمكن فيها لكل دولة أن تترقب أمانها وحقوقها لا من قوتها الخاصة أو من تقديرها الخاص للحق، بل من هذه الجمعية الكبيرة من الأمم (Foedus amphyctionum)، أي من قوة متحدة، ومن القرار المُتّخَذِ بناء على قوانين نابعة من اتفاق إرادات هذه الأمم، مهما بدا ما في هذه الفكرة من حماسة بالغة، ورغم أنها، بوصفها كذلك، صارت موضع سخرية عند الأب دو سان بيير وروسو، ربما لأنهما اعتقدا أن تحققها بات قريبًا، إلا أن ذلك هو المخرج الذي لا مفر منه من حالة البؤس التي أوقع البشر أنفسهم فيها، والتي لا بد أن تُرغِمَ الدول، مهما شقَّ عليها أن تقتنع بذلك، على أن تتخذ القرار نفسه الذي كان الإنسان المتوحش مجبرًا على اتخاذه على مضَضٍ، ألا وهو: التنازل عن الحرية الوحشية من أجل البحث عن السكينة والأمان في نظام يحكمه القانون.

وعليه، فإن الحروب كلَّها ما هي إلا محاولات عديدة، ليس بقصد البشر، بل بقصد الطبيعة، من أجل إفساح المجال لعلاقات جديدة بين الدول وتكوين هيئات جديدة من خلال تحطيم الهيئات القديمة أو تقسيمها على الأقل. وهذه الهيئات الجديدة لا تستطيع مع ذلك أن تبقى على حالها، إن في ذاتها أو في علاقاتها

[16]. الدول مثل الأفراد في حالة الطبيعة تقيم فيما بينها علاقات تتسم بالصراع والشقاق اللذين يتخذان صورة الحرب.

بعضها ببعض، وتبعًا لذلك لابد أن تتعرض لثورات جديدة مماثلة للسابقة. وهكذا إلى أن يتوطد بفضل أفضل تنظيم ممكنٍ للنظام المدني على المستوى الداخلي من جهة، وبفضل توافقٍ وتشريعٍ عامين على المستوى الخارجي من جهة أخرى، وضعٌ بإمكانه، لمّا كان شبيهًا بجماعة مدنية كونية، أن يستمر من تلقاء ذاته مثل آلة ذاتية الحركة.

أيلزم الآن أن ننتظر من تضافرٍ أبيقوري[17] للعلل الفاعلة أن تُجَرّب الدول، على شاكلة ذرات المادة، بتصادمها كيفما اتفق، كافة أشكال الهيئات التي تتحطم من جراء مصادمات جديدة، إلى أن تنجح في نهاية المطاف هيئة ما بالصدفة في أن تحافظ على شكلها، تلك صدفة سعيدة حدوثها في يوم ما أمر بالغ الصعوبة؟ أم ينبغي بالأحرى أن نسلِّم بأن الطبيعة تتّبع هاهنا مسارًا منتظمًا لكي تقود نوعنا شيئًا فشيئًا من مرتبة الحيوانية الدنيا حتى مرتبة الإنسانية العليا، وهذا إنما يتم في الحقيقة بواسطة فنٍّ خاص بها، وإن كان مفروضًا على الإنسان غَصْبًا، وأنها تُنَمّي استعداداتها الأصلية بكيفية تامة الانتظام رغم الاختلال الظاهر في هذا الترتيب؟ أم نفضل أن نذهب إلى أنه لا ينجم عن أفعال البشر وردود أفعالهم جميعها، أيُّ شيء حكيم، وأن كل شيء سيبقى دائمًا على ما كان عليه من قبل، وأنه تبعًا لذلك لا يمكن التنبؤ بما إذا كان الشقاق، الذي هو طبيعي في نوعنا، لن يُعِدَّ لنا جحيمًا من الشرور، أيًا يكن الوضع المتقدم لتحضرنا، وذلك بالقضاء لربما من جديد على حالة التحضر هاته، وعلى كل أشكال التقدم المتحقِّقة حتى الآن في الثقافة من خلال تخريب بربري،[18] ذلك مصيرٌ لا يمكننا أن نأمن منه تحت سلطان الصدفة العمياء، التي تتماهى مع الحرية التي لا يضبطها قانون، ما لم نفترض وراء هذه الحرية خيطًا مرشدا للطبيعة مرتبطا خُفْيَةً بحكمة ما؟

ترجع جميع هذه الفرضيات في العمق إلى السؤال الآتي: هل من المعقول التسليمُ بغائية تنظيم الطبيعة العضوي في الأجزاء، وغياب الغائية في الكل؟ وبناءً عليه، فإن الأثر الذي تُحْدِثه حالة المتوحشين الخالية من الغائية، المتمثل في أنها أعاقت في نوعنا في البدء جميع الاستعدادات الطبيعية، ولكنها أرغمته، من خلال الشرور التي أوقعته فيها، على مبارحة هذه الحالة للدخول في نظام مدني يمكن فيه لهذه الجراثيم كلها أن تنمو وتتفتح، تُحْدِثُه الحرية البربرية للدول القائمة سلفًا كذلك، وذلك لأنّ توظيف كل قوى الجماعات في التسلح بعضها ضد بعض، والأضرار الفادحة التي تسفر عنها الحرب، وعلاوة على ذلك ضرورة البقاء في حالة تأهب لخوضها باستمرار، كلُّ هذا يعرقل بالضرورة سيرورة التفتح التام

[17]. ينشأ العالم، حسب الأبيقوريين، من تصادم الذرات، وليس هناك غائية وراء انسجام الطبيعة. ووفق هذه النظرة ينبغي أن ننتظر عددًا لا متناهيًا من المحاولات والأخطاء حتى تؤدي مصادفة سعيدة إلى اتحاد الدول في جمعية كسموبوليتية.

[18]. يشير كانط إلى وجهة نظر موسى مندلسون التي مفادها أن كل تقدم يوازيه سقوط أو انحطاط. وإن النوع البشري كان طفلاً ورجلاً وشيخًا دائمًا، ولكن ليس في المكان نفسه. صحيح أن الإنسان يتقدم، لكن ليس بوصفه نوعًا، بل على نحو فردي، يرتقي البعض ويهوي آخرون.

للاستعدادات الطبيعية. بيد أن الشرور التي تنجم عن ذلك تُجْبر نوعنا على العثور على قانون توازن[19] تجاه المقاومة، وهي في ذاتها مفيدة، تلك المقاومة التي تُبْديها كثير من الدول المتجاورة تجاه بعضها نظرًا لحريتها، وعلى إيجاد قوة موحّدة لتعزيز هذا القانون، ومن ثم وضعية أمان عمومي كوسموبوليتية بين الدول لا ينتفي فيها الخطر بالكامل، كي لا تغفو قوى الإنسانية تمامًا، ولكنها لا تمضي كذلك من دون مبدأ تكافؤٍ بين أفعالها وردود أفعالها المتبادلة كي لا يحطم بعضها بعضًا. طالما لم تُخْطَ هذه الخطوة، أعني ائتلاف الدول، وبالتالي لا يكون تفتح الطبيعة البشرية إلا في منتصف الطريق تقريبًا، فإن هذه الأخيرة تتحمل أبشع الشرور تحت المظهر الخادع للهناء الخارجي. ولم يكن روسو مخطئًا بالكامل في تفضيله حالة المتوحشين إذا ما صرفنا النظر عن هذه المرحلة الأخيرة التي لازال نوعنا ملزمًا بالارتقاء إليها. إننا مُهذّبون[20] إلى حدٍّ كبير بالفن والعلم، ونحن مُتمدّنون[21] إلى درجة الإصابة بالإرهاق فيما يتعلق بالكياسة وآداب التعامل الاجتماعية من كل لون. لكن مازال يلزمنا الكثير لكي نعتبر أنفسنا متخلقين. ففكرة الخلقية تنتمي أيضًا إلى الثقافة، بيد أن تطبيق هذه الفكرة، الذي يؤدي إلى مظهر الخلقية في الشرف والكياسة الخارجية فحسب، يشكل المدنية. ولكن طالما أن الدول تُكَرّس قواها جميعًا لأغراضها التوسعية العنيفة عديمة الجدوى، وطالما أنها بذلك تعوق باستمرار المجهود البطيء للتكوين الباطني لطريقة تفكير مواطنيها، بل وتَحْرِمُهم من كل عون في سبيل تحقيق هذه الغاية، فإنه لا يمكن أن نترقب أيّ حصيلة من هذا القبيل، إذ لا بُدَّ لذلك من عملٍ طويل داخلي من جانب كل جماعةٍ ابتغاءَ تكوين مواطنيها. غير أن كل خيرٍ ليس مُطَعّمًا في نية خلقية حسنة ما هو إلا مظهر صرف وبريق زائف. لاريب في أن الجنس البشري سيظل في هذا الوضع إلى أن يكافح في سبيل تَخْليص نفسه من هذه الوضعية المطبوعة بالفوضى والاضطراب التي تَسِمُ العلاقات بين الدول.

القضية الثامنة:

يمكن النظر إلى تاريخ النوع البشري في مجموعه على أنّه تنفيذ لمخطط خَفِيّ للطبيعة من أجل إيجاد نظام سياسي كامل على المستوى الداخلي، وإيجاد نظامٍ سياسي كامل على المستوى الخارجي، ونظامٌ كهذا هو الذي يحقق الوضعية الوحيدة التي يمكن للطبيعة فيها أن تجعل كافة استعداداتها في

[19]. يصف كانط سيرورة إنشاء كيان فيه تتعايش الدول بسلام مستلهمًا الفيزياء النيوتونية، أي توازن القوى المحكوم بمبدأ تكافؤ الفعل ورد الفعل، ولذلك استخدم سابقًا لفظة آلة ذاتية الحركة (automate) لكي يبين أن اتحاد الدول يجب أن يتحقق من خلال تفاعل قوى ميكانيكي.

[20]. مهذبون (cultivés) تدل على الحقبة الثقافية من المدنية (civilisation)، أي تقدم الملكات العقلية بالعلوم والفنون. وتدل الثقافة على الوجهة الطبيعية السامية للنوع البشري، أي فكرة الإنسانية، لكن الثقافة ما هي إلا مرحلة في تقدم البشرية ينبغي أن تهيئ للخلقية.

[21]. *المدنية* (civilization): التحكم في الميول تحت سلطان الإكراه الاجتماعي والقانوني الذي يسمح بالارتقاء من بداوة الإنسان الطبيعي وغلظته إلى عالم الكياسة وآداب السلوك الاجتماعية، أي الأخلاق الخارجية.

الإنسانية تتفتح تفتحًا تامًا. وما هذه القضية إلا نتيجة تنتج عمّا سبق، فالفلسفة كما نرى يمكن أن تكون لها أَلْفِيتُها كذلك،[22] لكن يمكن للفكرة التي لديها عن هذه الألفية أن تُعِينَ هي نفسها على مَقْدَمِها، وإن من بعيد جدًا. وعليه، فإن هذه الألفية ليست حماسة مفرطة أبدًا، فللأمر صلةٌ بما إذا كانت التجربة تكشف لنا عن شيء زهيد فيما يخص المسار الذي يتبعه مقصد الطبيعة، أقول "شيء زهيد"، إذ يبدو أن هذه الدورة تقتضي زمانًا طويلاً لكي تكتمل، إذ إن تحديد شكل المدار وعلاقة الأجزاء بالكل بيقين تام اعتمادًا على الجزء اليسير الذي اجتازته البشرية يبدو متعذرًا، كما يتعذر تحديد المسار الذي أنجزته شمسنا مع موكب أقمارها بأكمله في المنظومة الكبرى للنجوم الثابتة على أساس الأرصاد السماوية التي تم القيام بها حتى الآن،[23] رغم أن لدينا من اليقين ما يكفي لكي نستنتج الوجود الفعلي لمثل هذه الدورة اعتمادًا على المبدأ الكوني للتكوين النسقي لبنيان العالم وعلى القليل مما تم رصده. وفي انتظار ذلك فإن الطبيعة البشرية تقتضي ما يلي: ألّا نكون غير مبالين تجاه العهد الأكثر بعدًا، والمطالبُ نوعُنا بالوصول إليه، شريطة أن يكون توقعه ممكنًا بيقين. وإن هذه اللامبالاة، بوجه خاص، ليس لها في حالتنا مسوغ، إذ يبدو أنه بمكنتنا، من خلال تهيؤٍ عقلاني من صنيعنا الخاص، أن نعمل على تسريع مَقْدَم هذا العهد السعيد لِخَلَفِنا، ولهذا فإن القرائن الضعيفة الدالة على قُرْبه بالغة الأهمية بالنسبة لنا. إن الدول منخرطة اليوم في علاقات متبادلة يصل فيها مفعول الفن[24] إلى مستوى لا يكون معه في وسع واحدة منها أن تتراخى في ثقافتها الداخلية دون أن تخسر من قوتها وتأثيرها تجاه الدول الأخرى. وتبعًا لذلك فإن الإبقاء على غاية الطبيعة هاته، إن لم يكن تقدمها، أمر مضمون عمليًا من خلال النوايا الطموحة للدول. وعلاوة على ذلك لا يمكن التطاول على الحرية المدنية دون أن يتم الشعور بمَضارّ ذلك على المهن كلها وعلى التجارة بوجه خاص، بل إن قوى الدولة في علاقاتها الخارجية هي التي ستضعف فورًا من جراء ذلك. بيد أن هذه الحرية لا تفتأ تتوسع أكثر فأكثر. عندما يُمنع المواطن من البحث عن رفاهه بكل السبل التي يراها مفيدة، شريطة أن تكون متوافقة مع حرية الآخرين، وتُعَاق حيوية النشاط العام وقوى المجموع بدورها، ولهذا تُرفع القيود المفروضة على حركات الأشخاص وسكناتهم بالتدريج، كما تعطى حرية الدين الكونية. هكذا ينشأ **التنوير** شيئًا فشيئًا ولم يتخلص بعد من الأوهام والترهات. ثمة خير عظيم يتوجب على الجنس البشري أن ينتزعه حتى من

---

[22]. الألفية (millénarisme ou chiliasme): للكلمة أصل ديني، فهي تدل على اعتقاد ديني في مملكة تدوم ألف سنة ينتظرها الألفيون: سيملك المسيح، وفق هذا الاعتقاد، مدة ألف سنة على الأرض قبل يوم الحساب. جاء في "رؤيا يوحنا" (الأصحاح العشرون) "رأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله...عاشوا من جديد وملكوا مع المسيح ألف سنة، وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه هي القيامة الأولى، مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني سلطان عليهم، بل سيكونون كهنة لله والمسيح، وسيملكون معه ألف سنة". أضفت فلسفات التاريخ على هذا المصطلح، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، طابعًا دنيويًا، فأضحى يدل على كل اعتقاد في عهد جديد يجلب للناس مزيدًا من السعادة والحرية.

[23]. من الصعب جدًا تحديد منحى التقدم البشري نظرًا للبعد اللامحدود لطرفه القصي، كما أنه من الصعب كذلك تحديد مدار الشمس في نظام المجرات البالغ الشساعة. ولكن كما أن الرياضي يستطيع أن يكمل ويستنتج المنحنى بكامله انطلاقًا من جزء محدود جدًا من المنحنى، فكذلك من الممكن، مهما كان الطريق الذي قطعه التقدم حتى الآن قصيرًا، أن نستنتج حقيقته وأن نقدر أن البلوغ إلى حده القصي أمر ممكن.

[24]. بمعنى أن الدول خرجت إلى حد ما من حالة الطبيعة.

شهوات التوسع الأنانية عند قادته، شريطة أن يفهم هؤلاء أين تكمن مصلحتهم الخاصة الحقيقية. على أن هذا التنوير، ومعه أيضًا نوع من التعلق الوجداني الذي لا يمكن للإنسان المستنير أن يتوانى عن إبدائه تجاه الخير الذي يفهمه حق الفهم،[25] يجب أن يصلا بالتدريج إلى العروش، بل أن يكون لهما تأثير على مبادئها في الحكم. وهكذا فإن حكوماتنا، مع أنها لا تجد حتى الآن مالاً تخصصه لمؤسسات التعليم العمومي ولكل ما له صلة بالمصلحة العامة، لأن كل شيء منذور سلفًا في سبيل الحرب القادمة، ستجد أنه من مصلحتها الخاصة ألّا تعوق الجهود الخاصة البطيئة والطويلة، التي تبذلها شعوبها في هذا المضمار بالضرورة.

وأخيرًا ستكف الحرب نفسها شيئًا فشيئًا عن أن تكون مجرد مسعى ذا آليات بالغة التعقيد ومآله غير أكيد بالنسبة للفريقين، بل ستصير مسعى محفوفًا بالمخاطر، نظرًا للعواقب الوخيمة التي تتحملها الدولة بفعل الوطأة المتنامية لديونها، وهو ابتكار جديد، التي يغدو التخفيف منها أمر غير قابل للتوقع. ثم إن التأثير الذي يُحْدثه انهيار دولة واحد على كل الدول الأخرى المرتبطة برباط وطيد بواسطة الصناعة في قارتنا، صار جليًا إلى حد أن الدول تُقَدم نفسها، تحت ضغط الخطر المُحدق بها هي نفسها، على أنها حَكَم، مع أنها تفتقر إلى سلطان الشرعية. وبهذا الصنيع تهيئ كل ما هو لازم لمَقْدم هيئة سياسية كبرى مستقبلية لم يرَ العالم حتى اليوم أي مثيل لها. ورغم أن هذه الهيئة السياسية لا توجد حتى الآن إلا في حالة مشروع غير مكتمل المعالم، إلا أن نوعًا من الشعور بدأ يلوح عند جميع أعضائها الذين يهتم كل واحد منهم ببقاء الجميع. وهذا ما يعطي الأمل في أنه، بعد أن تطرأ ثورات كثيرة في هذا التحول، سيأتي اليوم الذي فيه يتأسس ذلك المقصد الأسمى الذي أرادت الطبيعة تحقيقه، ألا وهو وضعية كوسموبوليتية كونية ستتفتح في ظلها كافة الاستعدادات الأصيلة في النوع البشري.

القضية التاسعة:

إن محاولة فلسفية لتناول التاريخ الكوني وفقًا لمخططٍ للطبيعة يرمي إلى الاتحاد السياسي الكامل في النوع البشري، ينبغي أن تعتبر أمرًا ممكنًا، بل هي مفيدة لمقصد الطبيعة ذاك. إنه لمشروع غريب على ما يبدو، بل غيرُ معقولٍ أن نسعى إلى كتابة التاريخ اعتمادًا على فكرةٍ عن المجرى الذي يجب على العالم أن يتّبعه إن كان يتوافق مع غايات عاقلة معينة. ويبدو أنه مع قصدٍ كهذا لن نصل إلا إلى رواية، غير أنه إذا جاز لنا أن نسلم بأن الطبيعة لا تعمل دون مخطط ولا مقصد غائي حتى في مجال لعبة الحرية البشرية، فإن هذه الفكرة قد تصير قابلة للاستعمال. ومع أن نظرنا قد يكون قصيرًا جدًا للنفاذ إلى الآلية الخفية

[25]. ليس الإنسان المتنور فاضلاً بعد، ليس متخلقًا تمامًا، ولكنه قادر على تصور فكرة الخير في صفائها بواسطة العقل وحده.

لتنظيمها العضوي، فإنه يمكننا أن نتخذ من هذه الفكرة خيطًا مرشدًا لكي نعرض ما كان سيظل من دون هذا ركامًا من الأفعال البشرية لا تتجلى فيه أية خطة على أنه نسق[26] في المجموع على الأقل. فإذا بدأنا من التاريخ اليوناني، إذ بفضله حُفِظت لنا كل التواريخ الأخرى، سابقة عليه كانت أم معاصرة له، أو أمكنَها بفضله أن تكون محل ثقة بالنسبة لنا[27]، ثم تتبعنا تأثيره في تكوين النظام السياسي وتشوهه عند الشعب الروماني الذي ابتلع النظام السياسي اليوناني، وبعد ذلك تأثير النظام السياسي الروماني في البرابرة الذين قاموا بتحطيمه بدورهم حتى نصل إلى عصرنا، وإذا أضفنا إلى ذلك بطريقة ثانوية أو تكميلية التاريخ السياسي لشعوب أخرى كما تعرفنا عليه شيئًا فشيئًا عن طريق هذين الشعبين المستنيرين بالضبط، فسنكتشف مسارًا منتظمًا لتحسُّنِ النظام السياسي في هذا الجزء من عالمنا، الذي لربما سيُشَرّع يومًا ما لكافة أجزاء العالم الأخرى. وعلاوة على ذلك، فإذا قصرنا النظر فقط على النظام المدني وقوانينه من جهة، وعلى العلاقات بين الدول من جهة أخرى، ولاحظنا كيف أن هذين العنصرين أسهما في ترقي الشعوب، ومعها الفنون والعلوم كذلك، والإعلاء من قدرها طوال مدة من الزمان، نظرًا لما ينطويان عليه من خير، وفي التسريع من سقوطها كذلك، نظرًا للنقائص الكامنة في طبيعتهما، إذ إنه مع ذلك بقيت جرثومة تنوير كانت تتفتح أكثر مع كل ثورة، فتهيء لطور أعلى من التحسين بالنسبة للخلف، لتبين لنا كما أعتقد خيط مرشد لن تكون فائدته مقصورة على تفسير ميدان الشؤون البشرية أو على التنبؤ السياسي بالتحولات المستقبلية في الدول، وتلك فائدة استخلصت من تاريخ البشر، وإن كان قد نُظِر إليه على أنه نتيجة غير متماسكة لحرية لا تضبطها قواعد، بل سيفتح نظرة على المستقبل مواسيةً، وهو ما لا يحق لنا أن نأمله ما لم نفترض خطة للطبيعة، نظرة بمقتضاها يُتَصَوَّر النوع البشري في مستقبل بعيد جديد، وهو يعمل مع ذلك جاهدًا على أن يرقى أخيرًا إلى حالٍ فيها يمكن لكل الجراثيم التي أودعتها الطبيعة فيه أن

---

[26]. الخيط الموجه لفكرة هذا التاريخ الفلسفي هو إذن فكرة النسق بوصفها مبدأ تنظيميًا. وحدها فكرة عن تاريخ كوني من وجهة نظر كسموبوليتية تسمح بتحويل الركام أو الخليط إلى نسق، وهذا ما يمكن النظر إليه من زاويتين:

- من خلال سعي البشرية إلى تحقيق النظام المدني ثم الاتحاد الكسموبوليتي، فإنها تسير من تجمع للأفراد غير محدد المعالم نحو جمعية للكائنات الحرة العاقلة.
- لا تمثل الأجيال متوالية لا دلالة لها، بل هي تشكل كلاً منظمًا، التاريخ هو صيرورته الموجهة. ولا يدعي كانط أنه يقدم نسقًا شاملاً، إذ يستلزم ذلك أن يكون التاريخ قد اكتمل.

[27]. إن جمهرة مثقفة ظلت موجودة منذ ظهورها حتى يومنا هذا دون انقطاع، يمكن أن تضمن لنا وحدها مصداقية التاريخ القديم، وخارجه يظل الكل أرضًا مجهولة، وتاريخ الشعوب التي عاشت بمنأى عنه لا يمكن الشروع فيه إلا ابتداءً من اللحظة التي فيها دخلت فيه. وهذا ما حصل مع الشعب اليهودي في عهد البطالمة، بفضل الترجمة اليونانية للكتاب المقدس التي من دونها ما كانت حكاياتهم المنزوية التي يرويها لتحظى إلا بثقة قليلة. ابتداءً من هذه اللحظة، عندما تكون نقطة الانطلاق هذه قد أنشئت سلفًا، يمكن أن نتتبع صعودًا خيط حكاياتهم، وكذلك الأمربالنسبة للشعوب الأخرى. إن الصفحة الأولى من تاريخ ثوكيديد هي البداية الوحيدة لكل تاريخ صادق، كما يقول هيوم.

تتفتح تفتحًا كاملاً، وفيها يمكن لوجهته على الأرض أن تُنجز تمامًا. إن تبريرًا كهذا للطبيعة، أو للعناية،[28] ليس باعثًا لا يُعتدُّ به لاختيار وجهة نظر خاصة لتأمُّل العالم، إذ ما جدوى الإعجاب بجلال الخليقة وحكمتها في مملكة الطبيعة حيث يغيب العقل والتوصية بتأملها، إن كان قسم من مسرح الحكمة السامية الرحب، الذي ينطوي بالضبط على الغاية من كل ما تبقى، وأقصد بهذا تاريخ النوع البشري، يجب أن يظل اعتراضًا أبديًا تجبرنا رؤيته وحدها على أن نصرف النظر عن هذا المشهد غير راضين، وتدفعنا، وقد يئسنا من أن نجد فيه قصدًا معقولاً كاملاً، إلى نُشْدانِ هذا الأخير في عالم آخر.

سيكون تأويلاً سيئًا لما أقصد إذا ظُنَّ أنني أردت بهذه الفكرة عن تاريخ كوني له خيط مرشد قبلي، إقصاءَ دراسة التاريخ بالمعنى الدقيق مفهومًا فهمًا إمبريقيًا صرفًا. إنما يتعلق الأمر هنا بفكرة عما يمكن لرأس فلسفي، يجب أن يمتلك معرفة وافرة بالتاريخ، أن يحاوله بتبني وجهة نظر أخرى. ثم إن التدقيق،[29] الجدير بالثناء من جهة أخرى، الذي نكتب به اليوم تاريخ عصرنا، لن يتأخر عن أن يدعو كل واحد إلى التفكير فيما يلي: كيف ستتعامل معه الأجيال القادمة لكي تزيح عنها عبء التاريخ الذي قد نُخلّفه لها بعد قرون؟ لا ريب في أنها ستُقَوّم تاريخ الأزمنة السحيقة، والذي ستكون وثائقه قد ضاعت منها منذ مدة طويلة، من وجهة النظر التي تهمها فقط، أي من وجهة نظر ما أنجزته الشعوب والحكومات من أمور إيجابية أو سلبية على الصعيد الكسموبوليتي. وينبغي أن يؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار وأن يوجه طموحَ قادة الدول وخدامها للفت انتباههم إلى السبيل الوحيد الذي يمكّنهم من نقل ذكرى مجيدة للخلف، وذلك باعث إضافي لمباشرة تاريخ فلسفي من هذا القبيل.

[28]. هنا تتبين الدلالة الحقيقية للمنظور "الطبيعاني" (perspective naturaliste) الذي تبناه كانط منذ بداية المقال. مصطلحات مقصد الطبيعة والعناية والحكمة السامية مترادفة، فالطبيعة هنا لا تعني الطبيعة كما تفهم بواسطة المقولات، بل هي فكرة (Idée)، إنها نظام الأشياء وفقًا للعقل الخالص وليس وفقاً لملكة الفهم.

[29]. التاريخ الفلسفي وحده يقدم للتاريخ الأمبريقي الخيط المرشد الذي يسمح بتقدير مساهمة الشعوب وتقويمها في سبيل التقدم الكسموبوليتي. فإذا لم يتبن المؤرخ وجهة النظر هاته فإنه باهتمامه المبالغ فيه بالتفاصيل يخاطر بفقدان بصيرته وتمييزه.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com